فصلنامهٔ علمی‌پژوهشی کاوش‌نامه
سال هشتم (۱۳۸٦)، شماره ۱۵

الغزل العذري من العصر الجاهلي الى العصر الاموي*

قديمه احمديان[1]
دانشجوی کارشناسی ارشد دانشکده الهیات
خیریه عجرش[2]
استادیار دانشکده الهیات دانشگاه شهید چمران اهواز

چکیده:

مردم از دوره جاهلی با غزل آشنا بوده‌اند و در این زمینه اشعار زیبایی از خود بر جای گذاشته‌اند. غزل در دوره جاهلی وسیله بود نه هدف و جنبهٔ مادی داشت اما غزل در دورهٔ اسلامی مستقل شد و مانند دورهٔ قبل وسیله نبود بلکه هدف و غایت بود. دین جدید و قرآن همانگونه که چیزهای بسیاری را تحت تأثیر قرار داد، بر شعر نیز تأثیر گذاشت. شعر، در این دوره، رنگ عفت و پاکی به خود گرفت. و به دو گرایش بادیه نشینی و شهرنشینی تقسیم شد، غزل در گرایش اول غزلی عفیف و پاک بود و بیشتر در میان مردم چادر نشین که زندگی فقیرانه داشتند رایج بود. فقر و تهیدستی و محرومیت دست به دست هم دادند و روان و زبان مردم راتزکیه گرداند. اما غزل شهرنشینی بیشتر در شهرها بود؛ آنجا که مردم زندگی مرفه و آسوده‌ای داشتند. از معروفترین شاعران غزل سرا «قیس بن الملوح (مجنون) و جمیل بثینهٔ و کثیّر عزهٔ و عروهٔ و توبهٔ» را می‌توان نام برد.

واژگان کلیدی: غزل پاک، عفت، دوره جاهلی، جمیل بثینه، بیابان.

---

* تاریخ دریافت مقاله: ۸٦/۲/۹ تاریخ پذیرش نهایی: ۸٦/۱۲/۲۲

نشانی پست الکترونیکی نویسندگان:

1- Gh-ahmadian2008@yahoo.com
2- Echresh-kh@yahoo.com

الملخص

عرف العرب فن الغزل منذ الجاهلية و برعوا فيه و تركوا لنا قصائد جميلة في هذا المضمار و كان آنذاک وسيلة لا غاية كما كان مادياً و انتقل الغزل من العصر الجاهلي الى العصر الاسلامي واستقلّ عن قالب القصيدة في هذا العصر و لم يكن وسيلة كما كان في الجاهلية بل غايةً و اثّر الدين الجديد و القرآن في هذا النوع من الشعر كما اثر في اشياء كثيرة و صبغه بصبغة العفة فلذلك اصبح للغزل اتجاهان اتجاه بدوي و اتجاه حضري اما الاول و هو العفيف فكثر في البدو حيث الخيام و الفقر فقد اجتمع في تلک البيئة الفقر و الحرمان و عفت النفس و اللسان و الغزل الحضري كان في المدن حيث الحياة المرفهة و الخصبة و القيان و من اشهر شعراء البادية العشاق:

أ- قيس بن الملوح, يذكراسمه مع بنت عمه ليلى العامرية, و اشتهر بمجنون ليلى.

ب- جميل, و له شعر في بثينة, و لاجل ذلك سمي بـ (جميل بثينة).

ج- كثير, كان يعشق عزة و يحبها.

د- عروة في عفراء, و له شعر فيها.

ه- توبة له شعر في ليلى الاخيلية, وكلاهما شاعران.

الكلمات الدليلية: الغزل العذري، العفة، العصر الجاهلي، جميل بثينة، البادية، العصر الاموي.

المقدمة

الحمدلله الذي خلق الانسان و علمه البيان. و الصلاة و السلام على رسوله الكريم و آله الطيّبين الطاهرين.

و اما بعد فانّ الغزل تعبير عن عاطفة أصيلة في الانسان تقوم على أصالة الحاجة الجنسية فيه. هو من اقدم الفنون الشعرية عند العرب واكثرها شيوعاً لاتصالها الوثيق بالطبيعة. و كان موجوداً في العصر الجاهلي و اتصل بالعصر الاسلامي و بعد ذلک العصر الاموي حتى وصل الى عصرنا الراهن و سيبقى و يدوم ما دام القلب و الاحساس و العواطف الصادقة حية دائمة.

هذا البحث جاء لتعريف الحبّ و الغزل بصورة عامة اولاً و في العصور المختلفة من الجاهلية الى الاسلامية الى الاموية و ثانياً قام بتعريف الغزل العذري و صفاته و خصوصياته و شعراءه و اخيراً اخذ في مقارنة الغزل بين العصر الجاهلي و الاسلامي و الاموي بالتفصيل.

الحب و مذاهبه

لكي نتعرف على ماهية الحب، يجب أن نتعرف على الباعث الذي أثاره، و أشعل كوامنه، أو صرف النظر عنه، و حوَّل مرآة القلب عن استقباله، و الباعث على الحب فى رأينا هو الجمال، الذى ينبعث من ذات الشيء. فنميل اليه و نألفه و نرغب فيه بمعايير متفاوتة وفقاً لتفاوت فطرتنا و مدى استجابة النفس لهذا الشيء.

للجمال اتجاهان: اتجاه يستهوي نماذج معينة للأشياء و اتجاه يرجع إلى ما نقرؤه خلال الأشياء. الإتجاه الأول عرفه العرب منذ اقدم العصور. و يمكن أن نفسره (بالجمال الموضوعى) أي الذي ينصب على مجموعة من الخصائص و الصفات. إذا وجدت حكمنا على الشيء بأنه جميل.

و الإتجاه الثاني اتجاه تحدّث عنه العرب في كتبهم و هو ما يمكن أن نفسره (بالجمال الذاتي). هذا الاتجاه نسبي من شخص الى آخر. و من خلال هذه الأقوال نستطيع أن نخرج بحقيقة و هي: أن الباعث على الحب هو الجمال، و أن الجمال يكمن عادة في الطبيعة و المرأة، الطبيعة بما فيها من جمال و قيم، و المرأة بما فيها من اشعاعات و معان، و لعل من أجمل الصور التي رسمتها الأقلام لحقيقة المرأة. هذه الأُسطورة التي وردت في الأدب الهندي من أن الإله (توشتري) فكر في تصوير المرأة بعد أن أنفق مادة الخلق في تكوين العالم، و صياغة الرجل، فجهد جهده في التماس الحيلة إلى ذلك. حتى اهتدى إلى أن يجعلها شيئاً من كل شيء، فصاغها من استدارة البدر، و نضارة الزهر، و لطافة النسيم و رشاقة الغصن، و دموع الغمائم و هديل الحمائم، و لحظات الشادن، و قسوة الأسد، و بهجة الطاووس، و التواء الأفعى، ثم قدمها إلى الرجل، فكانت سحراً لناظره، و فتنة لخاطره، و حيرة لنفسه، و مادة لدرسه. (راجع: عفيفي، صادق، ١٩٧٢، ص ٩٥-١٠٠)

و مع الصحراء تقف المرأة فى حياة الشاعر العربى ملهمةً أخرى، أو ربةًمعبودة يُقدِّم في هياكلها المقدَّسة أغلى قرابينه، و يرتِّل في حبها أروع آياته، و يوقد في رحابها الشموع، و يحرق عند أقدامها البخور. و كل من يستعرض شعرنا العربي يلاحظ أن المرأة احتلت منه مكاناً مرموقاً، و أنها عاشت فيه نغماً خالداً تعزفه قَيثار الشعراء، و تُوَقِّعه أوتارهم، و أغنية حلوة تتردّ في لهواتم و فوق شفاههم، و حلماً ساحراً يداعب اجفانهم، و يسامر لياليهم، و يملؤها

عليهم أحلاماً سعيدة، فمن حبّها استلهموا أروع مقدّماتهم، وفي حبها نظموا أبدع روائعهم، و على حبها عاشوا أجملَ أيامهم و أحلى لياليهم، و إلى حبها أداروا وَجهَ أمانيهم، ووجَّهوا صدور آمالهم، ووراء حبها سكبوا دموعهم غزيرةً، و أذابوا قلوبهم حنيناً و اشواقاً و حسرات. و يوشک الأدب العربي أن يكون أغنى الآداب العالمية شعرَ حبّ، و لا يكاد يعدل الغزل العربيّ أيّ غزل آخر كثرة شعراء، و تنَوُّع تجارب، و تعدُّد مذاهب. (خليف يوسف، ۱۱۱۹، ص:۷)

و لا شک فی أن العصر الجاهلي كان نقطة البداية لكثير من اتجاهات الغزل العربي فقد ظهرت المقدمات الطللية و الغزلية، و ظهر الغزل الحسّي بشتى درجاته عند امرىء القيس و الأعشى و أضرابهما، و ظهر الغزل المعنوي بما ينطوي عليه من إرهاصاتٍ عُذرية عند المتيمين. وبعد ذلک يأخذ الدين الجديد يغمر العرب وتمتد اشعته القوية في كل الارض.

يتدفّع تياران جاهلي و إسلامي يتجاذبان كُلّ الشعرا فيما بينهم «و تبدأ عملية» التطور و التجديد «في الشعر الأموي تأخذ طريقها في الحياة الأدبية. و يمضي الشعراء – في ظل حياتهم الجديدة – يُعَمِّقون مجرى النهر الذى راح الشعر العربي يتدفّق فيه قوياً صاخباً، و تُبعَثُ اتجاهات الغزل القديمة للحياة خلقاً جديداً فتظهر مدرسة الغزل الحجازية في مدن الحجاز الكبرى: مكة ومدينة والطائف، ويَلمَعُ في أفقها الشرقيّ الزاخر بالأضواء: عمر و العرجيّ و الأحوص، و أمثالهم ممن تخصصوا للغزل وراحوا يوسِّعون مجرى النهر، فأندفعت تياراته الدافئة الدافقة تحكى قصة الحب التى تدور أحداثها على المسرح الجديد ناعمةً مرحة مبتهجة متفائلة. وتظهر في بوادي نجد والحجاز مدرسة العذريين، و يلمع فى أفقها الغربي الشاحب الذي تكاثفت فيه الغيوم: جميلٌ و المجنون و ابن ذريح، ونظراؤهم من شباب البادية اليائس المحروم الذين راحوا يُطَهِّرون مجرى النهر القديم من الأعشاب و السدود ليتدفّع ماؤه العذب صافياً رقراقاً يحكى مأساة الحب التي تدور أحداثها الحزينة فوق الرمال يأساً وحرماناً ودموعاً وحنيناً إلى ماضٍ بعيد ذهبت ذكرياته السعيدة أدراجَ الرياح. (ذوالرمة شاعر نفسه والصحراء: ص:۸)

و فظلت للمقدمات الطللية و الغزلية قداستها التقليدية، و ظلت في موضعها القديم لحناً مميزاً للقصيدة العربية، و بخاصة عند الشعراء الكبار: جرير و الفرزدق و الأخطل الذين شُغِلوا

بخوض معركة النقائض المحتدمة فوق أرض العراق الثائرة التي راحت القبائل تعيد عصبياتها من جديد إلى الحياة.

الغزل:

اما بالنسبة الى الغزل فانه نشأ في الجاهلية نشأة طبيعية ولأن النسّاءكانت سافرات لا يتبرقَعنَ و لا يتحجَّبنَ عن انظار الجنس الآخر، إلّا بعض التلثُّم. و الميل بين الجنسين أحدهما الى الآخر ميل طبيعيّ غايته و كماله الزَّواج. و كان تعدُّد الزوجات و إباحة ما فى ملك الرجل من الإماء شائعاً فى الجاهلية. والميل يظهر بالحب والولع بالجمال، و الحبّ والولع يقودان الى التغنّي بمظاهر ذلک الجمال، و هذا التغنّي هو الغزل، و يُدعى النسيب و التشبيب. قيل بل التشبيب ذكر أيام الشباب، و اللهو و الغزل و ذلک يكون في إبتداء قصائد الشعر. «وجاء تلخيص ميزات الجمال الجاهليّ الذي تغنىَّ به الشعراء، فى كلام يُنسَب الى امرأة من كندة، قيل أرسلها الحرث بن عمرو ملک كندة لتختبر له جمال ابنة عوف ابن ملحم الشيبانى و كمالها و قوّة عقلها. فلما رجعت إليه قالت: «رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالک كأذناب الخيل، إن أرسلته خلتَهُ السّلاسل، و إن مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل، و حاجبَين كأنما خُطّا بقلم أو سُوِّدا بفحم، تقوَّسا على مثل عين ظبية عَبهرةَ، بينهما أنف كحدِّ السيف، حفّت به وجنتان كالأرجون، في بياض كالجمان، شُقَّ فيه فمٌ كالخاتم لذيذ المبتسم، فيه ثنايا غرّ ذات أشر، تقلب فيه لسان ذو فصاحة و بيان، بعقل وافر، و جواب حاضر، تلتقي فيه شفتان حمراوان فى رقبة بيضاء كالفضّة رُكِّبَت فى صدركصدر تمثال دمية، و عضدان مدمَّجان يتَّصل بهما ذراعان ليس فيهما عظم يُمَسّ و لا عرق يُجسّ، رُكِّبت فيهما كفّان دقيقٌ قصبهما، لينٌ عصبهما، تُعقَد إن شئت منهما الأنامل... هذا كان المثال الأعلى فى الجمال عند أبناء الجاهلية و هذا ما وصفَهُ شعراؤهم. (الفاخوري، حنا، ١٩٩٥، ص ١٤٦) فهو جمال الجسم والظاهر فقط ولا النفس والباطن.

مكان الغزل من الشعر الجاهلى

١ - كثرة هذا الغزل

يشغل الغزل، من الميراث الشعري الذي خلفه لنا العصر الجاهلي، مكاناً واسعاً، حتى ليكاد

أن يكون الجزء الأكبر من ثروتنا الأدبية في هذا العصر. «و مطالعتنا دواوين الجاهليين المختلفة تضعنا أمام هذه الحقيقة الواضحة، و هي ان كثرة كثيرة من الشعر الجاهلى الذي وصل الينا تكاد تكون قاصرة على الغزل او متصلة به بسبب، و إن الأغراض الاخرى جميعاً من الفخر و المدح و الهجاء و الرثاء لا تعدو أن تكون قسيماً لشعر الغزل... ان الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين، نقش الجاهليون على صفحتها الاولى عواطفهم التى ابتعثها فيهم الحب، و ما يؤدى اليه هذا الحب من وصل او هجر، و من سعادة او شقاء، و من لذة او غصة، و صوروا هذه العواطف و أفنوا فى تصويرها ملكاتهم و مواهبهم... أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها كل اغراضهم الاخرى، و نثروا فى اطرافها كل الفنون و الأغراض الثانية، كائنة ما كانت هذه الفنون و الأغراض. (شكري فيصل: ۱۹۸٦: ص: ۲۳)

۲- أصالته

و ليس هذا فحسب، بل إن الأغراض الأُخرى التي عرض لها الشعراء الجاهليون لم تكن، في كثير من الأحيان، مقصوداً اليها قصداً و لا معتمدة تعمداً... كانت روح الحب و عواطف الهوى هي التي تبتعثها و هي التي تكمن وراءها... و بتعبير آخر، كانت هذه الأغراض تتصل بالغزل بهذا السبب أو بذاك، بالسبب الواضح أو بالسبب الغامض... و لكنها «كانت في احيان كثيرة قريبةً منه» فالفخر الذي أنشده عنترة في معلقته لم يكن بعيداً عن روح الغزل، بل كان منه منبعه و مصدره، كان الشاعر يريد لصاحبته أن تطمئن اليه، فلم يكفه أن وقف على أطلالها و لا أن وصف طرفها الغضيض و رائحتها الطيبة، و انما عرّج فوصف مواقفه في الحروب و مكانه من الغزوات و شجاعته فى النزال، و كيف كان يلاقى البطل المدجّج الذي كره الكماة نزاله، و كيف كان يجود له كفه بالطعنة العاجلة، ثم كيف كان يشك بالرمح الأصمّ ثيابه حتى يتركه للسباع يَنْشَنَهُ و يتناولنه من أطرافه و رأسه... و كذلك كان الشأن حين تحدث عن القوم بالغارات يدعون «عنتر» فاذا هو يتقدم يستنقذ قبيلته و يرد عنها خصومها. (نفسه، ص:۲٤)

۳- دلالته النفسية: ذاتية الشاعر الجاهلي

و مهما يكن من شيء، فقد احتل شعر الغزل هذا الحيّز الواسع من الثروة الشعرية و تربّع

على قممها، فلم يحفظ لنا الشعر الجاهلى هذه الصور من تاريخ الجماعة و من غزواتها و حروبها و من تنافر قبائلها و ائتلافها فحسب، و لكنه حفظ لنا فى فنونه الغزلية هذه الصور من خفق أفئدتها و ذوبان قلوبها.. و لم يمثل لنا هذه الجماعة في حياتها الخارجية فحسب بل مثل لنا حياتها الداخلية.. أطلعنا على نبضات القلوب و آهات النفوس و مسارح الذكريات.. و صوّر لنا هؤلاء الأفراد كما صوّرلنا الجماعة ايضاً عبر عواطفها.. فكان لنا بذلك ثروة كبيرة في تعرفنا الى هذا القبيل من الناس كيف كانوا يعيشون في نزواتهم العاطفية.

وهذه الملاحظة عن غزارة شعر الغزل ووفرة مقاديره في التراث الأدبي الجاهلي قد تلفتنا الى « ذاتية » الشعر العربي و تطلعنا على «فرديته» وتقيم برهاناً جديداً على هذه الصفة.. إن كثيراً من النقاد يلمحون في الشعر الجاهلي صفته الاجتماعية، و يلحون على القول إنه كان صورة اجتماعية لحياة الناس، و إن الشاعر كان سجل حياة القبيلة ومجمع مآثرها، وكان لسانها الذي يعبر عنها، و إن شعره كان ملتقى عواطفها و محامدها وسجل ايامها ووقائعها.. و الواقع إننا يجب ألانغفل- فى غمار هذه الصفة الاجتماعية للشعر العربي - انه كان قبل ذلك او الى جانب ذلك شعراً فردياً، و إن هذه الصفة الذاتية فيه تكاد تغلب ما سواها، وإن الشاعر لم يكن لسان القبيلة فحسب و لكنه كان لساناً معبراً عن وجوده النفسي و عواطفه الخاصة إنه لم يكن بوق القبيلة فقط ولكنه كان قيثارة نفسه وصدى لقبيلته بعد ذلك. (نفسه، ص ٢٣- ٢٧) لانه ديوان الأحاسيس والعواطف له ولقبيلته وكان العرب -كما تعلمون - يفتخرون بشاعرهم ويتفاخرون به.

الغزل في العصر الأموي

بما أنّ العصر الاموي عصر الغزل ولأن الغزل و النسيب عادا فى العصر الأموي إلى الازدهاربعد أن كانا قد أُهملا قليلاً فى صدر الاسلام الأوّل. «لقد انحدر الغزل الأموي من الغزل الجاهلى. غير أن هذا الغزل كان في الجاهلية غرضاً من أغراض القصيدة يأتي في أبياتٍ تَقِلّ أو تكثُر و تتوالى أو تتفرّق؛ فلمّا انحدر إلى العصر الأموي أُتيح له شعراء وقفوا جهدهم عليه كعمربن ربيعة الذي جعل منه فنّاً قائماً بنفسه: كان عمر يقصُرُ القصيدة على الغزل فلا يكاد يقول فيها ألا غزلاً، ثم انه لم يقل إلّا فى الغزل. و النسيب أيضاً فنّ جاهلي أصيل، غير

إنه خضع في العصر الأموي لتطوّر بارزجدّاً: لقد تطوّرجانب منه فنشأ ما نسمّيه بالغزل العذري. (فروخ، عمر، ۱۹۹۷: ص: ۳۶۷)

وطه حسين يقول: غزل أيام بني أمية ينقسم الى ثلاثة أقسام مختلفة: الأول غزل العذريين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا الحب الأفلاطوني العفيف، «كجميل وعروة وقيس بن ذريح و المجنون » والثاني غزل الإباحيين الذين أسميهم «المحققين» و هم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً، وزعيم هؤلاء عمربن أبي ربيعة. و الثالث الغزل العادي الذي ليس هوفى حقيقة الأمرإلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين، أريد به الغزل الذي لايقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق، وانّما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ؛ إلى المدح والهجاء والوصف و نحوها، أريد به هذا الغزل الذي كان الجاهليون يبتدئون به قصائدهم والذي ظل الإسلاميون يبتدئون به قصائدهم إلى اليوم، وهو الغزل الذي تجده فى شعر جرير والفرزدق والراعي وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر. (حسين، طه، ۱۱۱۹، ص ۱۸۷). ولا شكّ انّ تطور العصروالسياسة يؤثر على المجتمع وآدابه كما يؤثر على تقاليده و ثقافته ونرى هذه القضيةفي المراحل المختلفة من التاريخ. والشعر لايستثنى من هذا القانون بل انّه في قمة التأثير والتأثر.

خصائص الشعر الغنائي في المدينة في العصر الاموي

كانت صورة الغزل في المدينة لهذا العصر صورة صريحة لا التواء فيها و لا عوج، بل يحكي فيها الشاعر كل ما يقع مع صواحبه من عبث و مجون في استهتار واضح، و من هنا كنا إذا قلنا إن غزل المدينة فى هذا العصر غزل إباحي لم نكن مخطئين. و ليس معنى ذلک ان المدينة انتفى منها الغزل العفيف، وإنما معناه أن هذا هو الكثير الغالب، و قد يوجد بجانب هذا الكثير الغالب شعر عفيف فيه تسامٍ و فيه طهر، فقد كان من زهاد المدينة وفقهائها من تغزلوا و عبروا فى غزلهم عن مثالية من العفاف و النبل دون سقوط في حكاية رغبات جنسية أو لذائذ جسدية على نحو ما نعرف عند فقيه المدينة، عبدالله بن عبدالله ابن عتبة. (شوقي ضيف: الشعر والغناء، ۱۹۶۷، ص: ۱۰۹)

و أيضاً ينبغى أن نعرف إن غزل الإباحيين أنفسهم كان يختلف باختلاف المرأة التى

يتغزلون فيها، فالمرأة العربية الكريمة من قريش او من الأنصار لا يتغزلون بها في حرية على نحو تغزلهم بالقيان من الجواري المغنيات اللائي كن يُبَعن فى الاسواق. و ليس من شك في ان هؤلاء القيان كان لهن اثرهن في شيوع الغزل الاباحي بالمدينة و انتشاره، و كذلك كان شأنهن بمكة فقد كانت البيئتان تتشابهان من حيث الحضارة و الترف و من حيث وجود دور اللهو و هؤلاء القيان.

لعلنا نستطيع بذلك أن نفهم شيوع الغزل العفيف في البادية عند جميل وكثير و أصحابهما، فقد كانت البيئة غير متحضرة، و لم يكن هناك هؤلاء القيان و لا هؤلاء الشبان من اهل المدينة الذين خلعوا كل حشمة ووقار. كان غزل المدينة اباحياً في جملته، و لكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله في هذه الوجهة، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عُبّاد المدينة و فقهائها. (نفسه، ص: ١٠٩)

في بادية نجد و الحجاز كانت الصورة المقابلة للغزل الحجازي سائدة، و هو انعكاس طبيعي للحياة البدوية، التي عاشها قبائل البادية في ظل تعاليم الإسلام، التي خلصتهم من روح الجاهلية القديمة، و هذبت من نفوسهم، و دفعت إليها بالفضيلة و العفة و مكارم الأخلاق، و الرقة و البر بالمرأة. و قد عزلتهم بيئتهم عن التأثر بما تأثر به مجتمع الحجاز من التيارات الحضارية، فظل مجتمعهم محتفظاً بطوابعه البدوية، و بحياته الاجتماعية التقليدية فضلاً عن حياة الشظف و الجدب، التي كانت تسيطر على مقدراتهم الاقتصادية ؛ و لهذا كان الحرمان هو السمة الغالبة على مجتمعهم فى ظل إعلاء الغرائز، و لهذا ساد الحب العذري الذي يفترق عن الحب الحسي الذي عرفه مجتمع الحجاز. و صورة هذا الحب، نتيجة لكل هذا، مأساة حزينة بدايتها أمل، ونهايتها يأس. وبين البداية و النهاية أحداث تتلاحق، يسيطر عليها الحرمان، و تُغَشِّيها الدموع و الأحزان، و لكن روحاً من الوفاء والإخلاص والتوحيد، والطهر والعفة، تتسامى به عن رغبات الحس و أهوائه، الى عالم مثالي روحاني خالص و قد اشتهر بهذا الحب، وصوَّره فى شعره شعراء عذريون كُثر. وشعرالعذريين بهذه الصورة جديد في الغزل العربي، خلافاً لمن يرونه وريثاً لشعر المتيَمين الجاهليين. فلاشك أن الإسلام قد أضفى عليه من تعاليمه و مُثُله سماتٍ و خصائص جديدة، و طبعه بطوابع تختلف عن الطوابع الجاهلية. ولعل أبرز ألوان التجديد فيه ظاهرة التخصص التي رأيناها في شعر الغزل الحسي بالحجاز. فقد أفرد الشعراء

العذريون قصائد بِرُمَّتها لهذا الحب الرومانسي الصافي، الذي أصبح معيناً يستمده شعراء الصوفية في التعبير عن مواجدهم الروحية، وحبهم الإلهي فيما بعد. (النعماني، عبد العزيز، ۱۹۹۱، ص ۶۷ — ۶۸)

الغزل العذري

ليس في عصور الشعر العربي عصر لم يعرف الغزل. إلا أنه كغزل من أغراض الشعر فقد ازدهر بوجه خاص في العصر الأُموي. و للغزل مدرستان: العذرية و الحضرية. شاعت المدرسة الأُولى في البادية و كان زعيمها جميل بن معمر العذري ؛ و انتشرت الثانية في المدينة و حواضر الحجاز، و كان زعيمها عمر بن أبي ربيعة.

أما الذي نحن بصدده فهو التيار العذري الذي غزا البادية و امتد تأثيره حتى عصرنا، متلوّناً بأناشيد الحرمان وولوع الأشواق و شكاوى الفراق و الحب الدفين. و الغزل العذري هو الغزل الحزين و أغنية الوعد تنقضي السنون و لا تتحقق. و كان مثل هؤلاء الشعراء شعراء كثيرون يتقلبون في البوادي و هم في أساليبهم الغزلية و في رواياتهم الغرامية. و قد نسج الرواة والأدباء حولهم أقاصيص تتشابه و تتقارب حتى لتظن الواحد منهم الآخر، و حتى لتحسب كلام الواحد كلام الآخر. و إذا بدا على هذا الغزل بعض الإشارات المادية أحياناً فما ذلک إلا أمان يرسلها المتيَّم متأثراً بحرمانه، أماني شاعر عاشق يعرف مسبقاً أنها لن تتحقق. (عيد، يوسف، ۱۹۹۲، ص: ۳ — ۴)

و العفة في القول و العمل غير مرهونة بعصر من العصور و إن انغماس أكثر الناس، و فيهم الشعراء، في القرن الثاني بالمجون و مفاتن الحضارة الجديدة لا يعني انتفاء العفة و اختفاءها نهائياً، إذ لابد من أن يوجد في كل مجتمع الخيرون و الأشرار، المجان و الزهاد، و أهل الطهر و العفاف. فإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً نلاحظ أنه في الوقت الذي كان يشيع فيه الغزل العذري و قصص الحب الطاهر في بوادي الحجاز و عند فقهاء مكة و المدينة، كان عمر بن إبي ربيعة و أضرابه من الشعراء يخرجون على الناس بغزلهم الفاحش الصريح مثلما كان يفعل امرؤالقيس و من لف لفه من قبل. (حسين بكار، يوسف، ص: ۲۴۹ — ۲۵۰)

الغزل العفيف غزل الروح المنصهرة، و هولذلک تجربة الوجدان يجري في داخل النفس

أكثر مما يظهر في خارجها. و لهذا السبب تكاد تراه واحداً عند جميع شعرائه، يلتقون فيه و في ما يتنابهم من جرأته، حتي لتكاد تحسبهم واحداً علي تعدّدهم، و حتي لتكاد تحسب أقوالهم قولاً واحداً لصفاء نفوسهم و انحصارها في قيد التجربة الواحدة. أضعف الي ذلك وأنّ الحبّ العذريّ وحدة لا تتجزأ، فهو يمتدّ كاملاً الى شخص كامل، لا يعرف غيره، و لا يستهويه سواه، فينصبّ فيه انصباباً. و هذا الشخص يتحوّل الى فكرة شديدة الفعالية، أو الى صورة جذّابة، تستبدّ بكيان الشاعر و جميع قواه فينطلق وراءها متصابياً، و يذوب جسمه ألماً وضعفاً في التطلّع إليها، وإذا هو إغماءة تلو إغماءة وذهول بعد ذهول. ويزيد في ألم الشاعر ما يقف أمام حبِّه من عقبات، إذ ينشغل به النّاس و تجري به ألسنتهم و يلومون و يعذلون، و يرمون الشاعر بالجنون ؛ و قد يهدّدون و يتوعدون، و الشاعر في عالم غير عالمهم، يعيش في صورة المحبوب، و تعيش فيه تلك الصورة. و تدور الأيام بالمحبوب، و يصير في حوزة آخر، فيشتد الألم بالشاعر و يصبح في الوجود أشبه بصدى في الآفاق، ثم يتلاشى الجسد، و إذا الشاعر روح في روح حبيبه و إذا حبيبه شعلة في خلوده. (الفاخوري، حنا، ١٩٩٥: ص: ٤٤١ - ٤٤٣)

لم يكن الشعر العذري الذي تعود بداياته إلى أواخر العصر الجاهلي تعبيراً عن تجربة اختص بها شاعر فرد، و إنما كان ظاهرة عامَّة عرفتها فترة من الزَّمن ذات خصائص اقتصاديَّة، دينية، اجتماعيّة و سياسيّة. و قد عُرفت هذه الظَّاهرة اكثر ما عرفت لدى قبيلة عربية تدعى «عذرة» فنسب هذا الشعر إليها و سمِّي باسمها. و قد نجد، في الواقع التاريخي لهذه القبيلة، ما يتيح فهم هذه الظاهرة. المعروف أن بني عذرة كانوا يقطنون وادي القرى و هو كما يقول ياقوت: «واد بين الشام و المدينة، فيه قرى كثيرة، لأنّ الوادي من أوَّله لآخره قرًى منظومة و مياهها جارية... منازل لقضاعة ثم جهينة و عذرة و بلّى. كانت قديماً منازل ثمود و عاد... استخرجوا كضائمها (قنواتها) و اساحوا عيونها و غرسوا نخلها». (زراقط، عبدالمجيد، ١٩٨٩، ص: ٧)

وهذا يعني أن بيئة العذريين بيئة متحضرة منذ زمن بعيد، وهي بيئة زراعيّة يتوافر الماء فيها؛ وهذا هو الأمر الذي يوفّرلساكنيها فرص الإتصاف بالجمال الناتج عن الحياة المستقرّة اللينة الظليلة - التي تحيط بهم - و الاتصاف، أيضاً بسلوك اجتماعي راق نسبياً.

خصايص الغزل العذري

العفة

إن الغزل العذري هو المظهر الفني للعواطف المتعففة و الملتهبة في آن واحد وقد وجدت أن هذا التعويض الفني هو خير ما تطفىء به لهبها و تتسامى به في غرائزها، من هنا نستطيع القول إن العفة أولى صفات الحب العذري و أولى علاماته... بقول جميل بثينة:

و إني لأرضى من بثينة بالذي
لو ابصره الواشي لقرَّت بلابلُه
بلا، و بأن لاأستطيع وبالمنى
و بالأمل المرجو قد خابَ آملُه
وبالنظرة العجلى،وبالحول تنقضي
أواخره لا نلتقي وأوائلُه

(عابدين نزار، ۱۹۹۹، ص۶۱)

وهذا العفاف هو الفارق الأكبر بين الغزل العذري، و الغزل الذي يمكن تسميته الغزل العمري، نسبة إلى عمر بن إبي

ربيعه، و بين العذري و الجاهلي، و بين العذري و التقليدي... و مهما يكن أمر هذا الأسلوب العفيف و مقارنته مع الجاهليين و العمريين و التقلديين فأن من المؤيد أن العذريين كانوا أصحابه، و هم الذين ابتدعوه، فلا نكاد نجد عندهم إلا القليل من وصف أحبتهم... لنأخذ مثلاً جميل بثينة، و هو أشهر العشاق العذريين... فلا نجده يصف بثينة، و لا يعرض علينا صوراً من جمالها... و كل ما قاله لها أو قاله عنها إنما عذبة الريق بقوله:

ألم تعلمي يا عذبةَ الريق أنني
أظلُّ إذا لم أُشقَ ريقَكِ صادي

(عابدين نزار، ۱۹۹۹، ص۶۲)

و إذا كان الشاعر الجاهلي حريصاً على الحديث عن مفاتن صاحبته و جمالها حديثاً مستفيضاً فإن العذريين اكتفوا ببعض التشبيهات البعيدة، و بما أننا نتحدث عن جميل، فإن كثيراً من النقاد يشكون في صحة بعض القصائد أو الأبيات التي نسبت إليه، و فيها وصف

لمحاسنها الجسدية، مع أن معظم هذا الوصف لا يخرج عن بعض التشبيهات المألوفة في الشعر العربى، كتشبيه العنق بعنق الريم، و العين بعين المها و غير ذلک... فقد اكتفى العذريون و جميل إمامهم بالتشبيهات الكلية:

هي البدر حسناً و النساء كواكبٌ
وشتان ما بين الكواكب والبدر

لقد فُضِّلت حسناً على الناسِ مثلما
على ألف شهر فُضِّلت ليلة القدر

يقولون مسحورٌ يجنُّ بسحرها
وأقسم ما بي من جنونٍ و لا سِحرِ

ذكرتُ مقامي ليلة البان قابضاً
على كفِّ حوراء المدامع البدرِ

فكدت و لم أملک إليها صبابةً
أهيمُ و فاض الدمعُ مني على النحرِ

(نفيه، ص٦٢)

الديمومة

و لهذا الحب العذري و شعره صفات أخرى يختلف فيها عن غزل الجاهليين و العمريين و التقليديين، و من هذه الصفات: ديمومة الحب واستمراره، فهو ليس عاطفة متأججة مؤقتة... سرعان ما تخمد و تبرد و تزول... يقول كثيِرعزَّة وهو يتغّنى بعزّة ويتغزل بحبها:

و إني وإن صدَّت لمثنٍ و صادقٌ
عليها، بما كانت علينا أدلَّتِ

فما أنا بالداعي لعزَّةَ بالردى
و لا شامتاً إن نعلُ عزَّةَ زلَّتِ

فـــلا يحـــسبِ الواشـــون أن صـــابتي

بعـــزة كانـــت غمـــرَةً فتحلّـــتِ

(کثیر عزة: ص۱۵۶)

و التعبير عن هذه الديمومة في الحب يأخذ أشكالاً شتى... فقد يكون في أخبار الـشاعر نفسها و هذا شيء مشترک بين العذريين جميعاً. أما شعرياً فقد تنوعت أساليب التعبير عـن هذه الديمومة، نقرأ أبياتاً لداود بن سَلَم:

و مـــا ذرَّ قـــرن الـــشمسِ إلا ذكرتُهـــا

و أذكرهـــا في وقـــتِ كـــل غـــروب

و أذكرهـــا مـــا بـــين ذاکَ و هـــذه

و بالليـــل أحلامـــي، وعنـــد هبـــوبي

وقـــد شـــفّني شـــوقي وابعـــدني الهـــوى

واعيـــا الـــذي بي طـــبٌّ كـــلّ طبيـــب

(الاغاني، الاصفهاني، ابوالفرج، ۱۹۸۶، ج۶: ص ۲۶)

وقد تدخل المبالغة على تعبير الشاعر عن هذه الديمومة، ومع ذلک فإن المبالغة هنا تزيد في صدق التعبير عن حرقة الجوى، و عن استمرار هذا الحب، في قلب المحب الذي لا يرى غـير محبوبته، و تزيد ايضاً في جمال الشعر... يقول قيس بن ذريح، و هو قيس لبنى:

تعلـــقَ روحـــي روحَهـــا قبـــل خلقنـــا

و من بعـــد مـــا كنّـــا نطاقـــاًوفي المَهـــدِ

فعـــاش كمـــا عـــشنا فأصـــبح ناميـــاً

و لـــيس وان مُتـــنا بمنـــصرم العَهـــد

و لكنـــه بـــاق علـــى كـــل حالـــة

وســـائرنا في ظلمـــة القـــبرِ و اللحـــدِ

(ديوان الشاعر، ص: ۷۰)

و الحب العذري يعد من النوع الذي يعيش فيه العقل في إسار القلب، إنه حبٌ لا يخالطه برد التعقل، و لا تظلله سحب الفكر الهادي، و إنما يمضي بصاحبه في كل حيّزٍ خشن صعب،

و تقذف به في معمة العشق، و في أتون نيران الحب المشبوبة... و نراه هو نفسه الذي يوقد النار، و يحترق بها، يقول مجنون لبنى قيس بن ذريح:

صحا كلّ ذي لبٍّ و كلٌّ متيم

و قلبي بلبنى ما حييتُ مروَّعُ

فيا من لقلبٍ ما يفيقُ من الهوى

و يا من لعينٍ بالصبابةِ تدمعُ

(عابدين نزار، ١٩٩٩، ص٦٤)

اليأس

في تتبعنا للشعراء العذريين لا نجد عندهم حديثاً عن بهجة اللقاء، و لا عن فرحة الوصال، و لا عن تحقيق الحب، كما نجد عند شعراء الجاهلية كامرئ القيس و الأعشى، و كما سنجد عن العمريين فيما بعد... فإذا حدث اللقاء فإنه يكون لقاء عابراً سريعاً لا يروي غُلةً، و لا يطفىء لهيباً، بل اكثر ما يكون مناسبة لتبادل النجوى و الشكوى، و زاداً لحزن أكبر قادم، و يأس و تشاؤم يشيعان في الأبيات، يقول مجنون ليلى:

أقول لأصحابي:هي الشمس، ضوءها

قريبٌ و لكن في تناولها بعدُ

لقد عارضتنا الريحُ منها بنفحة

على كبدي من طيب أرواحها برد

فما زلت مغشياً عليَّ و قد مضت

أناةٌ و ما عندي جوابٌ ولا ردُّ

(ديوان الشاعر ص:٥٧)

الصفاء و الإشراق

و عند ما نقرأ شعر الحب العذري لا بد أن نلمس طابعاً مميزاً متأثراً من العوامل السابقة كلها و نتيجة لها... ذلك هو طابع الصفاء و الإشراق الذي يطبع هذا اللون من الشعر... و

هذا الصفاء و الإشراق في التعبير لا يتأتى للشعراء الإباحيين بان يكون موضوعهم الذي يجولون فيه متمكناً منهم أصيلاً فيهم... إن الفكره الفجة و الشعور السطحي الطارىء كفيل بإن يكشف عن نفسه في صورة التعبير، إذ تأتي صورة التعبير عندئذ فجة سطحية... أما حين تكون المشاعر متأصلة متجذرة متمكنة تنبع من الأعماق، و حين تكون المعاني متمثّلةً عميقة الجذور عاشها الشاعر و امتزج بها فإن الأساليب التي تكتسيها هذه المعاني، لا يمكن أن تكون إلا هذه الأساليب الصافية المصقولة، و لا يمكن إلا أن تكون متطابقة في عمقها و أصالتها مع الأشياء التي تعرضها أو تعبر عنها... (عابدين، نزار، ۱۹۹۹، ص ۶۱ – ۶۴)

ولادة الغزل العذري

قد يكون من العبث ان نحدد ولادة هذا الفن الشعري... ذلک إنه ظاهرة من الظواهر الفنية التي ترتبط أشدَّ ارتباط بالظواهر الاجتماعية. و مثل هذه الظواهر تمتاز بأنها ليست منفصلة عما قبلها و لا منفصلة عما بعدها... فليس لها هذا التوقيت، و ليس في صورتها المكتملة التي نراها عليها ما يتيح لنا ان نقول انها نشأت في هذا العصر او استوت في هذه الفترة... انها تشبه النبتة، و للنبتة في حياتها ادوار متداخلة... اننا نراها ناضجة مستوية على سوقها، و لكنها كانت قبل هذه النبتة التي لاتكاد تظهر، او هذه البذرة التي لاتكاد تبدو، و فيما بين ذلک كانت هذه الساق الضئيلة النحيلة التي تتشقق عنها الارض.

فالظواهر الاجتماعية إذن بوجه عام متداخلة متصلة يعسر تحديدها، و الظواهر الفنية بوجه خاص أشد عسراً على التحديد... ذلک لأن ولادة إتجاه فني معناه ان هذا الاتجاه كان من قبل حدساً، ثم آل بعد ذلک الى إن يكون إرهاصاً، ثم انقلب الإرهاص الى شيء من الغمغمة فيه و الاشارة اليه، ثم كان بعد ذلک هذا الخوض فيه و الحديث عنه. غير ان ذلک لا يمنعنا من ان نلاحظ ان نشأة هذا الغزل العذرى و نموه وجدت في مثل ظروفها و اجوائها و بيئاتها التي كان يجب ان توجد فيها... فلم يكن من الممكن ان يظهر هذا الغزل بقدسيته و طهارته قبل عصر بني امية. لم يكن من الممكن ان يظهر في عصر الخلفاء الراشدين بالرغم من ان تَمَثُّل التقى و الصلاح كان في عصر الراشدين اشدَّ وضوحاً منه في عصر الامويين، و بالرغم من ان الانعتاق من بعض الحدود و التحلل من بعض النواهي و التحرر من بعض التشدد وجد مجالاً في العصر

الأموي بأوسع مما كان في عصر الراشدين و الأمر مع ذلک يبدو بسيطاً... فهذا الغزل العذري يجب ان يكون نتيجة من تربية جيل جديد تربية صارمة، هذا من جهة... و يجب ان يكـــون نتيجة من نوع من الحياة الإجتماعية تعرف الاستقرار و يساعد عليه من جهة آخرى...و كلا هذين الأمرين لم يتوفّرا معاً إلا في عصر بني امية.

صحيح ان الرسول ربّى جيلاً من الصحابة و لكن هذا الجيل كان مشغولاً عـــن نفـــسه بواجبه، و عن صوت قلبه بقرآنه، و عن مجاهدة المحبين بمجاهدة المشركين، و عـــن مكابـــدة الاشواق بمكابدة الاشواک و العقبات في طريق الفتوح، و عن الاستقرارفي الأرض بالضرب في الأرض، و عن الاخلاد الى النفس بالهجرة الى الأمصار الجديدة... أما في العصر الاموي فقد آن لهذه النبتة، لهذا الغزل العذري، ان تتفتح و ان تزدهر، و ان تأتي بالثمرات الطيبة في تاريخ الادب العربي. فلذلک لا نستغرب ولادة هذا الغزل في العصر الاموي، و لا نقول في انفسنا ما بال هذا اللون من الفن لم تتنفس به الجزيرة في عصر الخلفاء... ففي العصر الاموي كانـــت اكتملت نشأة هذا الجيل الذي مازجت التربية الاسلامية اعماقه، و خالطت دماءه، و ظلّلت طريقه... و في هذا العصر ايضاً كانت هدأت ريح الفتوح و انقلبت هذه الفتوح من عمـــل جماعي يتدفق من كل ارض الجزيرة و يتجمع في هذه التيارات – كالينابيع الصغيرة التي تتفجر من هنا و هناک لتلتئم بعد ذلک في الجدول الكبير – الى عمل حكومي تنظمـــه الدولـــة و تشرف عليه و تأخذ نفسها بإعداده والاختيار له، و تركز له وقته و تدعوا اليه، و تلزم الناس الحرب مرة و الاستقرار مرة... ففى هذا العصر اذن آن لنا ان نستمع الى انغام هذا الغـــزل و الى دقات اوتاره الاولى... اما قبل ذلک فقد كان المجتمع الاسلامي يخضع لتلک الظـــروف القاسية التي لاتتيح له ان يصرف قواه العاطفية جميعاً في غير حركة التوسع التي كانت ابـــتلاءً لهذا المجتمع الناشيء و اختباراً لقواه. هذا شيء... و الشيء الآخر الذي نستطيع ان نضيفه ان الغزل و الشعر بوجه عام، كان تمثيل للعاطفة وتعبيرعنها – والاسلام كان فكرة وتـــستدعي تقبلاً لها و انقياداً اليها... و في الفترات الاولى التي فجأ فيها الاسلامُ الحياة العربية كانت هذه الموجة الفكرية هي التي تملأ حباتهم و تجتذب اليها كل اهتماماتهم، و تصرف نحوهـــا كـــل جهودهم و تنبه قواهم في سبيلها و من اجلها... اما بعد ان استقرت هذه الفكرة في نفوسهم فلم تعد موضع صراع و لا موطن مناقشة، فرجع الناس الى حياتهم العاطفية يصغون الى انينها

او مرحها... و مثل هذا الذي نتحدث عنه في حياة الجماعة يقع كذلک في حيـاة الفـرد و نستطيع ان نتمثله في حياتنا و ذواتنا... إننا نلاحظ ان موجة فكرية تطغى علينا بعض الاحيان عند قراءة كتاب او الوقوف عند مذهب او مواجهة حادث من الحوادث الاجتماعية التي تمـر بنا – فلا تترک هذه الموجة الفكرية مجالاً للنبضة العاطفية وربما تغيبها... إننا نحس آنذاک و كأننا محض عقل، و كأن عقلنا اسير لهذه الفكرة حتى يقف منها بعد ذلک موقفاً لا يخـضع للرفض او التشكيک فيها.

ماهية الغزل العذري

إننا نستطيع أن نقول إن الحب العذري انما نشأ عن التقاء عنصرين اثنين: اولهما العاطفة الدينية و الثاني الميول الجنسية في نفس المؤمن الذى حسن ايمانه و قوى يقينه. اما الغزل العذري فهوالتعبير الفني الشعري عن هذا الحب، انه هذه الثروة الشعرية التي خلفتها لنا النفوس المحبـة التي تذرعت بالايمان و احتمت بالعفة. و تفصيل ذلک يكمن فيها تحدثنا به من قبل فالاسلام لم ينفخ في نار الحب ليطفئها، و لم ينفخ فيها كذلک ليوقدها فتلک من شؤون النفس و الحياة التي لم يواجهها منفصلة عما حولها و لم يعالجها منقطعة عما وراءها و أمامها. و إنما نظر اليها هذه النظرة الجامعة فشقق لها الطريق، و صعّد فيها الميول، و أ ضاف اليها هذا الحاجز الـذي يحول بين طغيانها و المجتمع... و أخيراً زرع في نفس المؤمن نزعة اخرى في عاطفة الحـب، و هي نزعة العفة. فظهر من هاتين النزعتين، حب العذري واراد المؤمن الذي يحب ان يتحـدث عن حبه فعليه ان يعبر عن مشاعره واحاسيسه بحياء وعفة. فلنا ان نقول اذن الغزل العذري هو المظهر الفني للعواطف المتعففة و الملتهبة في آن واحد و التي وجدت في هذا التعويض الفني خير ما تطفيء به لهبها و تتسامى به في غرائزها.

صفات الحب العذري

و الاسلام زاوج بين مفهومين: مفهوم الحب و مفهوم العفة... فحصّن عاطفة الحـب في هذه العفة و اعترف بها في هذا النطاق اطاراً اجتماعياً لابد منه. و من هنا نستطيع ان نقول ان العفة هي اول صفات الحب العذري و أبرز علاماته وان النفوس البشرية سـواءٌ في تعرضـها

للحب... و لكن بعض الحب عاطفة موقتة لا تلبث ان تخمد و تبرد وهو كلهب القش لا يلبث ان يزول بعد اتقاد و ضياء و سطوع... وبعض الحب عاطفة خالدة لا ينال منها إعراض او ملل او قسوة، و إنما تظل دائماً متوهجة لها في كل حيز من عالم المحب الداخلي جري لاينقطع و حنين لا يهدأ. و الحب العذري من هذا النوع فلذلک يتصف – الى جانب العفة – بالتداوم والديمومة.

و لا يتخذ الحب مظهراً واحداً عند المحبين جميعاً... انه هادئ عند بعضهم ثائر عند بعض آخر. بعض النفوس تشهد هذه المعركة الانسانية في رقابة العقل فتمضي دائماً تبترد في ظلاله و تستعين بإيحائه و تخضع له فيما تأخذ و تدع. و نفوس اخرى تشهد هذه المعركة لا في مجرد رقابة العقل بل في اجتماع العقل و القلب معاً في تغذية الاهواء و إضرام المشاعر. و الحب العذري يعد من النوع الذي يعيش فيه العقل في إسار القلب، إنه حب لا يخالطه برد التعقل و لا تظللة سحب الفكر... و انما يمضي بصاحبه في كل حيِّزخشن صعب، و يقذف به فوق الرمال المشبوبة ليحترق بها... انه حب يمتاز بالحرارة الملتهبة.

و بعدُ، فنستطيع ان نجمل القول اذن بأن الحب العذري هو هذا الحب الذي يتصف بالحرارة الملتهبة و الديمومة الدائمة و العفة المحضة و من هذه الأقاليم الثلاثة يتألف جوهره و تقوم ذاته. انه يجمع هذه الصفات جميعاً في نفس واحدة، ثم يدعها تئن و تشكو، و تتضرع و تتلوى... و ليس الغزل العذري الا اعتصاراً لهذه الضراعة و هذا الأنين. لقد انطلق الحب العذري من إسار الغريزة ليعيش في آفاق العفة. و أفلت من تقلب الأهواء و توقيتها ليتقلب في خلود العواطف و ديمومتها... و العذريون هم اولئک الذين دعاهم الجمال، و أغرقهم اللذائذ، و ثارت في نفوسهم الشهوات... و لكنهم انعتقوا من كل ذلک و انصرفوا عنها، و تحصنوا بالعفة ولذلک لم يخشوا ان يعبروا عن عواطفهم هذه ما دامت البراءة تكسوها و العفة تملؤها... فانطلقوا يغنون عواطفهم و ينشدون آلامهم و آمالهم. (فيصل، شكري، ١٩٨٦، ص ٢٨٤-٢٨٨)

شعراء الغزل العذري

الغزل العذري غزل نقي طاهر ممعن في النقاء و الطهارة، و قد نُسب إلى بني عُذرة لأن

شعرائهم أكثروا من التغنّي به و نظمه. و لم تقف موجة الغزل العذري لهذا العصر عند عـــذرة وحدها فقد شاع في بوادي نجد و الحجاز، و خاصة بين بني عامر، حتى ليصبح ظاهرة عامة تحتاج إلى تفسير، و لا شک في أن تفسيرها يرجع إلى الإسلام الذي طهر النفوس، و برّأها من كل إثم. و كانت نفوساً ساذجة لم تعرف الحياة المتحضرة في مكة و المدينة و لا ما ينطوي فيها من لهو و عبث و من تحلل أحياناً من قوانين الخلق الفاضل على نحوما مرَّ بنا عند الأحوص و العرجي، و هي من أجل ذلک لم تعرف الحب الحضري المترف و لا الحب الذي تدفع إليـــه الغرائز، فقد كانت تعصمها بداوتها و تديُّنها بالإسلام الحنيف و مثاليته السامية عن مثل هذين اللونين من الحب، إنما تعرف الحب العفيف السامي الذى يَصلَى المحب بناره و يـــستقر بـــين أحشائه، حتى ليصبح كأنه محنة أو داء لايستطيع التخلص منه و لا الإنصراف عنه.

و تقترن بأشعار هذا الغزل أسماء كثيرة، كما يقترن به قصص غزير، و هو قصص فيـــه بساطة و سذاجة حلوة، قصص يصور لنا حياة هؤلاء العشاق العذريين المتبدين، و قد أحكم الرواة نسجه، إذ مضوا يلفقون فيه عقدة نفسية، خيَّلوا لسامعيهم أنها عقدة حقيقية، و ذلـــک أنهم زعموا أنه كان من تقاليد العرب أن لا يزوجوا فتياتهم ممن يتغزلون بهن، لما يجلبن لهن من فضيحة بين العرب. و هو تقليد لم يُعرَف في الجاهلية و لا في الإسلام. و قد مضوا يقولون إن السلطان كان يهدر دماء هؤلاء الغزلين، كانهم أتوا جناية عظيمة، و لو قتل السلطان في الغزل لقتل أمثال الأحوص لا هؤلاء المتعفِّفين أصحاب الحب الطاهر الشريف، و قد حرَّم القـــرآن الكريم و الحديث النبوى قتل النفس بغير حق. و لا شک في أن هذا كله قصص لفقه الـــرواة كي يوجدوا لهذا الغزل عقدة، بعثت على ما أحسوه عند هؤلاء العشاق من إحساس بالحرمان الشديد. و إذا كان خيال الرواة لعب في أخبارهم فإنه لعب أيضاً في أسمائهم، إذا اخترع من لدنه لبعض هذه الأخبار و ما طُوِيَ فيها من أشعار أشخاصاً لعلهم لم يوجدوا أبداً. (ضيف، شوقي، ۱۱۱۹، ص ۳۵۹ – ۳۶۰).

وهداالشعر وبصورة عامة التغزل قدخضع حضوعاً تاماً لتأثير الغنـــاء ولهـــذا اصـــبحت موسيقى الشعر الجديد في التغزل اكثر لطفاً من موسيقى الشعر القديم. وعادة الوزان القديمـــة المطولة تختفي من شعر التغزل ويقبل الشعر والشعراء الى الاوزان القصيرة الرشيقة.

مقارنة الغزل الإسلامي و الجاهلي

بعد أن استقر الأمر للمسلمين كان هؤلاء الأعراب في حالة غير قليلة من اليأس و الفقر، وهذا اليأس و الفقر أحدثا في البادية مثل ما أحدث اليأس و الغنى في الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعري. و لكن يأس البادية و فقرها أحدثا هذا الغزل العفيف على حين أحدث يأس الحاضرة و غناها ذالک الغزل العابث الماجن. يكفي أن توازن بين حياة البدو بعد الإسلام و قبله لترى أن هناک فروقاً عظيمة بين هذين النوعين من الحياة. و لكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها. فلم تكد الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام بل ظلوا يلقون من الضيق و يقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون و يقاسون في العصر الجاهلي الا انّ حياتهم العقلية و المعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيراً شديداً و حسبکَ أن تقارن حياة بدوية متأثرة بتلک الطائفة من الآراء التي كان يتأثر بها الجاهليون، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم و ما فيه من دين و خلق و أدب و حكمه و نظام، لتشعر بالفرق بين نفسية البدويّ المسلم في أول عهد الناس بالإسلام و نفسية البدوي الجاهلي.

كان هذا الفرق عظيماً و كان التوازن مختلاً بين الحياة العقلية و الحياة المادية ؛ تغيرت الاولى تغيراً تامّاً، و لم تتغير الأخرى أو لم ينلها من التغير إلا شيء قليل. (حسين، طه، ١١١٩، ٢٢٠-٢٢١)

و امتازالشعراء الاسلاميون على شعراء الجاهليين بشيئين اثنين: أحدهما انهم قصروا اكثرحياتهم الفنية على الغزل. و كان الشعراء في العصر الجاهلي يعنون بالغزل كما يعنون بغيره من الفنون، و ربما اتخذوه في أكثر الأحيان وسيلة لاغاية. أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة. و لم نعرف أنهم مدحوا أو عُنوا بفن آخر من فنون الشعر إلا ما كان يضطرهم إليه الغزل. فنحن نعلم مثلاً أنّ جميلا هجا و فاخر و لكنا نعلم أنه لم يهج رغبة في الهجاء، و لم يفاخر رغبة في الفخر، كما كان يفعل الأخطل و الفرزدق و جرير ؛ و إنما هجا لإن غزله اضطره إلى الهجاء، وفاخرلأن غزله اضطره إلى الفخر. هجا قوماً كانوا يعيبونه و يهجونه لغزله ونسيبه، و فاخر هؤلاء القوم أنفسهم، و لو لم يعرضوا له لما فاخر و لا هجا، و نحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر، و قد أضيف إليه أبيات مدح بها ابن ابي عتيق و لم يقلها قيس إلا لأن ابن ابي عتيق جدّ في وصل الحبل بينه و بين لبنى.

و الآخر أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل ا لجاهليين من حيث إن

غزل الجاهليين كان ماديّاً خالصاً حين كان في غزل الإسلاميين شيء غير المادة. و أظن أنّ هذا يحتاج إلى شيء من الإيضاح. ما الذي كان يعني به امرؤالقيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزلوا و ذكروا النساء؟ لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم، و إنما كان الغزل عندهم ضرباً من الوصف، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل. و قلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصاً على تمثيلها، فإن وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراء ؛ لانها كانت عاطفة مادية غليظه إن صح هذا التعبير كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات و إيثار اللذة قبل كل شيء. و من هنا تجد عند امرئ القيس و النابغة مثلاً هذا الوصف المادي الذي يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفاً تفصيلياً يختلف حظه من العفة قوة و ضعفاً ؛ و لكنه مادي قبل كل شيء. و انهم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل كذلک كان الغزل في الجاهلية، كان وسيلة و كان ماديّاً.

أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة و إنما كان غاية، و لسنا نستطيع أن نقول إنه بريء من المادة و خلا منها خلوّاً تاماً، فذلک غير صحيح، و لم يستطع الأدب العربى في وقت من الأوقات أن يبرأ من المادة، و إنا نستطيع أن نقول: إن الغزل الإسلامي العذري أضاف إلى المادة شيئاً آخر جعله قوام الشعر، نريد به حب نفسه و ما يترک في القلب من أثر و ما يبعث في النفس من عاطفة، و ما يسبغ على المحب من كآبة و حزن، و ما يحيي فيه من أمل و رجاء، لسنا نشک في أن جميلاً و قيس بن ذريح و المجنون قد وصفوا أجسام بثينة و لبنى و ليلى، بل وصفوا هذه الأجسام وصفاً مفصلاً لا يخلو من دقة و تحقيق، و لكنا لا نستطيع أن نشک في أن هذا الوصف الماديّ لم يكن الغرض الذي كان يرمي إليه هؤلاء الشعراء، انما كان وسيلة إلى الغرض الذي كانوا يرمون إليه، و هو وصف النفس و ما تلتقي بالحب من شقاء أو سعادة و من بؤس أو نعيم. انتقل إذن موضوع الغزل في الإسلام، كان في الجاهلية جسم المرأة فأصبح في الإسلام نفس العاشق، و من هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل و لم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد، و إنماكانوا يصفون المرأة كما ينبغي أن يصفها إنسان يشعر و يحس و يمتاز بشيء من الشعور و الحس لا يخلو من رقة و رقيّ معاً لم تكن المرأة عند هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيئاً يطمع فيه، و إنماكانت شطراً من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا بها. و لعلک تقرنا على أن هذا رقيّ عظيم، و على أن العقل العربي و الشعور العربي عند ما بلغا هذا الطور من تصوّر المرأة و الحكم عليها و الميل إليها؛كانا قد جاوزاكل المجاوزة طور الوحشية التي كان يعيش فيها

الجاهليون. و ليس غريباً أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن؛ و أثـر القرآن في نفوس المسلمين عظيم. (نفسه، ص: ٢٢٤ – ٢٢٦)

مقارنة غزل الجاهلي و الأموي

وجد الغزل العفيف في الجاهلية، و إن كان أقل بكثير مما كان عليه العذريون الأمويـون، فليس هو وليد العصر الأموي كما يذهب اليه عدد من الدارسين المعاصرين مثـل: موسـى سليمان و أحمد عبدالستار الجواري و شكري فيصل، فيمكن عدّه نواة و أصـلاً للاتجـاهين العفيفين في العصرين الأموي و العباسي. و ليس ينكر أنه ازدهر و استوى على سوقه في العصر الأموي ؛ ثم « اكتملت له سماته المميزة و استقرت تقاليده و مقوماته التي اكتسب معها صورته الأخيرة و شكله النهائي الثابت » فعرف العصر الجاهلى جماعة من المتيّمين الـذين اقترنـت أسماؤهم المرقش الأصغر و فاطمة و مالک بن الصمصامة و جنوب، و عبدالله بن العجـلان و هند، و عمروبن كعب و عقيلة، و عبدالله بن علقمة و حُبيشة و عروةبن حزام و عفـراء، و كان عنترة و عبلة اكثرهم شهرةً. كان لأولئک العشاق قصص لا تقل عن قصص العـذريين الأمويين، ليس ينكر أن الرواة بالغوا في نسج كثير منها و تزايدوا فيه، و ليس بغريب أن يقع الدارس على تشابه كبير في بعضها. امّا شعرهم فبالرغم من قلّته بالنسبة لنظرائهم الأمـويين فيدل على حب مخلص و عواطف صادقه و مشاعر ملتهبه. و تظهر في غزلهم مرارة الحرمان و الألم و الشكوى، فمالک بن الصمصامةكان يشكوكثرة الرقباء و العذّال. و عروة كان يدعي نحول الجسم و دیمومة خفقان القلب. و لكن شعرهم لم يخل من بداوة حسية لا تتخطى اللمس و التقبيل أو تمنيها. (حسين بكار، يوسف، ص: ٥٦)

اهم النتايج التي تمّ التوصل اليها هي:

١ – إن ظاهرة الحب العذري كانت في العصر الجاهلي و في الحقيقة في هذا العصر كانت بدايته.

٢ – في العصر الاسلامي استقلّ الغزل و اصبح غاية بعد ما كان وسيلة.

٣ – في العهد الاموي كثرالغزل لوفرة عوامله و ظهر شعراء كثيرون في هذا المجال.

٤ – من صفات العذريين صدق العاطفة و اليأس و الحرمان.

٥ – الاوزان التي يتطلبها الشعر الغزلي ما هي الّا اوزان قصيرة.

المصادر و المراجع:

۱. الاصفهاني، ابوالفرج: (۱۹۸۶م) الاغاني، المجلد السادس، دارالفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

۲. بكار، حسين يوسف: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، بيروت، لبنان، الطبع و النشر و التوزيع (دارالاندلس)

۳. حسين، طه: (۱۱۱۹) حديث الاربعاء، المجلد الاول، مصر، دار المعارف بمصر القاهرة – الطبعة الثانية عشرة.

٤. خليف، يوسف: (۱۱۱۹) ذو الرمة شاعر الحب و الصحراء، دارالمعارف بمصر.

٥. زراقط، عبدالمجيد: (۱۴۰۸هـ. ۱۹۸۹م) ديوان جميل بثينة، دار و مكتبة الهلال بيروت.

٦. ضيف، شوقي: (۱۹۶۷) الشعر و الغناء في المدينة و مكة لعصر بني امية بيروت، لبنان، دار الثقافة، الطبعة الثانية.

۷. ــــــــــ: تاريخ الادب العربي (۲) العصر الاسلامي، القاهرة، دار المعارف، مصر ۱۱۱۹– الطبعة السابعة.

۸. عابدين، نزار: (۱۹۹۹)، الغزل في الشعر العربي، سورية، دمشق.

۹. عفيفي، صادق: (۱۳۹۲ هـ – ۱۹۷۲ م) الحب و مذاهبه النفسية و الجمالية، دار البيضاء.

۱۰. عيد، يوسف: (۴۱۳ هـ – ۱۹۹۲م) ديوان العذريين، بيروت، دار الجيل، الطبعة الاوليى.

۱۱. الفاخوري، حنا: (۱۹۹۵)، الجامع في تاريخ الادب العربي (الادب القديم)، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية.

۱۲. فرحات، يوسف: (۱۹۹۴) ديوان مجنون ليلى، دارالكتاب العربي، الطبعة الثانية .

۱۳. فروخ، عمر: (۱۹۹۷)، تاريخ الادب العربي، المجلد الاول، دارالعلم للملايين (مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر) الطبعة السابعة (حزيران / يونيو).

۱٤. فيصل، شكري: (۱۹۸۶)، تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، الطبعة السابعة.

۱۵. محمد عليّان، احمد: (۱۹۹۲)، كثيّر عزة، عصره، حياته وشعره، دارالكتب العلمية، بيروت– لبنان.

۱٦. نورالدين، حسن: (۲۰۰۰ م)، امراء الشعرالعربي (من العصر الجاهلي الى العصر العباسي) بيروت، لبنان .

۱۷. نعماني، عبدالعزيز: (۱۴۱۱هـ–۱۹۹۱م)، فن الشعر بين التراث و الحداثة، دارالمصرية اللبنانية.

Pure Sonnets from Ignorance Age to the Umavids

Qhadimeh Ahmadian
MA student of Theology
Khairieh Echresh, ph.D
Ahwaz University

Abstract:

People have been familiar with sonnets since Ignorance Age and they have left behind a a number good poems. Sonnet age was a means in ignorance not an end and had corporeal aspects but sonnets ahained. independence in the Islamic period.They were not a means as before but were an end with a specific purpose . The new religion and the Quran affected the development of sonnets. Poems in this period . were pure and appeared to be common between the nomads who lived in slums. Poverty and destitution purified. the spirits and language of people .But civil sonnts were to the cities where civilized people were living in ease and comfort . The most famous sonneteers were Gheys ben Almeloh (Majnoon), Jamil Bothneya, Kaseer Azeh, Orvah, and Tobah .

Keywords *: Pure Sonnet, Virtue, Ignorance Age, Jameel Bothneye, Desert*

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی